تاريخ الاسر المارونية

تأليف

الخوري اسطفان البشعلاني

هو معجم او موسوعة تاريخية للاسر المارونية جملة تقع في بضعة مجلدات ، عني بوضعها مرتبة على حروف المعجم ، مؤلفها البحاثة المعروف بطول الباع في التاريخ الوطني وتحقيق اصول الاسر اللبنانية وانسابها . وصدّرها بخلاصة تاريخ لبنان والموارنة ، وتوطئة في الاسر والانساب اللبنانية ومؤرّخيها واصولها ومواطنها واحوالها الدينية والاجتماعية بصورة لم يسبق اليها . وقد رغبنا الى حضرته ان يتحفنا بشيء من فصول كتابه القيّم الذي يعدّه للطبع فاجاب سؤلنا بطيبة خاطر لانه صديق قديم لهذه المجلة وله فيها مقالات تاريخية وادبية . وهذا ما نأخذه اليوم من « توطئة » كتابه ناشرين له تلطفه وسائلين الله ان يأخذ بيده ليتمكن من نشر هذا الاثر الخالد

(المشرق)

١ ــ الاسر والانساب

رابطة القرابة : ليس في الروابط الطبيعية اشد واقوى من رابطة القرابة فهي رابطة العاطفة والمحبة ، بل هي رابطة الدم . والدم اكثف من الماء ، وقد قيل : الدم لا يصير ماء . وهي اعز واغلى على قلب الانسان من الرابطة القومية التي تربطه بابناء وطنه . فاهله اكثر عنده من سائر مواطنيه ، واعضاء اسرته احب الناس لديه ، لانهم اشدهم قرباً اليه . فهم انصاره في الشدة والرخاء ، واعوانه في السراء والضراء . بهم يشتد ازره ، وفيهم يفاخر ويعتز . واذا اجتمعت رابطة الدم مع رابطة الدين زاد هذا الاجتماع كلًا منهما قوة وتمكيناً . ومن الخطأ القول «اخوك في الدم ولا اخوك في الدين» لما فيه من المخالفة لمبادئ الدين الصحيح بل الوطنية والاجتماع . وهو قريب من مبدأ «العنصرية»

ـي رداه الدين . فكم من رجل يحب اخاه في الدين وإن لم يكن اخاه في الدم .

الاجتماع والاسرة : ومعلوم ان الانسان مدني بالطبع ، يحب الالفة ويميل الى الاجتماع بغية التعاون على المعاش والتعاضد على دفع العوادي . فالاجتماع حاجة القلب البشري ، وهذا الميل غريزي في الحيوان لكنه قد بلغ الغاية في الانسان . حتى ان الامم الهمجية تنفر من الوحدة وتعيش قبائل وعشائر . ومنشأ الجماعات العائلة فهي منذ القديم المظهر الاول للمجتمع الانساني . والعروة الوثقى للحياة الادبية انما هي الزواج الشرعي ، فاذا انفصمت تضعضعت دعائم المجتمع وسادت الفوضى وتفاقمت الرذائل ولم يبقَ للمحبة اثر . واصبحت كلمة الولد لغوًا وذهبت لذة الاخوّة وماتت العواطف النبيلة والاميال الشريفة، وزالت من النفوس عوامل العمل والجهاد ، وانفصمت الروابط العائلية بين الناس ، لان العائلة هي التي تشرّف الانسان وتجعله نافعاً للبشرية .

فالاستمساك اذًا بعرى القرابة ، والاحتفاظ بالصلات الاهلية من اهم دواعي الالفة والتعاون ، واكبر وسائل الاتحاد والتضامن مما هو اساس العمران والحضارة . ومن دواعي الاسف ان هذه الروابط اخذت تتراخى مع الايام ، وكادت تتفكك وتنحلّ بسبب التنافي مما ادى الى ضعف المحبة الاهلية . فهناك ثورة على النواميس الطبيعية مثل كل ثورة ، الامر الذي كان له نتائج سيئة وعواقب وخيمة في مجرى الحياة الاجتماعية ، لانه تبلبل لسنة الله وقلب لنظام الخالق عز وجلّ .

معرفة الانساب : وقد توصل فريق الى القول بترك هذه الروابط ، وان الانسان حريّ بان يكون ابن نفسه لا ابن جنسه ، وان الخليق به التخلي عن كل علاقة قرابة باهله واسرته ، اذ لا فائدة من الاعتماد على ذوي القربى في مذهب هؤلاء. الثائرين على النواميس الطبيعية والشرائع الاجتماعية ، لانها في عرفهم تقاليد موروثة بالية . ومن ثمّ فالاهتمام بمعرفة التواريخ العائلية والعناية بجمع شتات الانساب ، كل ذلك عندهم من الامور العقيمة التي لا نفع منها

للافراد ولا للمجتمع . وبذلك تضيع الانساب التي طالما كان السلف الصالح يفاخرون بها ويحافظون عليها . ولا يبعد ان يؤدي هذا الامر الى التنكر جملةً وتناسي صلة القرابة . ولا يخفى ان تاريخ الاسر هو تاريخ الامة والوطن لانهما يتألفان من مجموع الاسر .

وقد رأينا الامم العريقة في الحضارة حتى في ايام جاهليتها حريصة على تاريخها معتنية بحفظ انسابها . وفي التوراة امثال من انساب الشعوب وتفصيل للسلالات البشرية ولا سيما اسباط بني اسرائيل . واول شيء نراه في الانجيل سلسلة نسب السيد المسيح من آدم حتى المسيح نزولاً ومن المسيح حتى آدم صعوداً . وكان العرب احرص الامم على ضبط انسابهم والاحتفاظ باحسابهم وكل قبيلة من القبائل العربية تفاخر بنسبها وحسبها حتى اشتهر العرب بعصبيتهم والمحافظة على طيب عنصرهم وعلى جودة اصل خيولهم . وكثيراً ما نراهم يتباهون في خطبهم واشعارهم بالحسب والنسب والانتماء الى القبائل مما يقوم عندهم مقام الوطنية عند الامم الغربية . ومن هذا القبيل ما جاء عن مالك بن مسمع احد رؤسائهم يفاخر بقومه ويؤدده : انه لو غضب لغضب معه مائة الف سيف لا يسألونه في اي شيء غضب .

والقبائل للعرب كالاسباط لبني اسرائيل ، وقد كانوا احوج الى الاحتفاظ بانسابهم ليكونوا متضافرين على خصومهم ، متناصرين على من عاداهم ، ولان ذلك احد اسباب الالفة . ومن اقوالهم : ان تعاطف الارحام وحمية الاقارب يبعثان على التناصر ، ويمنعان من التخاذل انفةً وتوقياً من تسلط الغريب . وجعلوا معرفة الانساب من الفروض ، وقد تكون احياناً من المستحبات والنوافل ، وحثوا على الالفة وكفوا عن الفرقة . وقد سفّه كثير من علمائهم رأي القائل بان علم النسب معرفته لا تنفع وجهله لا يضر . قال امامهم علي بن ابي طالب « اكرم عشيرتك فانهم جناحك الذي به تطير ، واصلك الذي به تصير ، ويدك التي بها تصول » وللعرب تآليف كثيرة في علم التاريخ والانساب .

وليس الامم المتمدنة غربية او شرقية باقل حظاً من العرب في معرفة

الانساب وحفظها ، وهذا العلم عدهم المقام الرفيع ، وهو احد فروع علم التاريخ ، ترى فيه سلاسل انساب الملوك والعظماء والاسر ، وخصوصاً في باب التراجم . وعلى الجملة فان كل امة من الامم لها تاريخها وانسابها ، وجميعها تقدر قدر هذا العلم وتقول بضرورته للشرائع والاحكام الدينية والزمنية ولا سيما في قضايا الزواج والمواريث .

الاسر وفروعها : الاسر جمع الاسرة وهي العائلة او العيلة والعشيرة والعترة والقبيلة والطائفة والبيت . وهي تدل على مجموع الافراد الذين هم من دم واحد واصل واحد وجد واحد ، كالاولاد والاخوة واولاد العم وسائر الاقارب كثروا او قلوا . اما الاسرة التي هي موضوع كتابنا فهي مجموع الاسر او البيوت الصغيرة المنسوبة الى اصل واحد والمعروفة باسم واحد . وتقسم الاسرة الى اصول وفروع فالاصل هو الجد الاصلي العام الذي تسمى الاسرة كلها باسمه او بلقبه او بكنيته . وكل فرد لا يتجزء من هذا الاصل ولا يرتقي بالتسلسل الى الجد الاعلى الجامع لا يكون من الاسرة التي تنتسب وتنمي الى هذا الجد ، والا كان دخيلاً على الاسرة ، او انه يُنمى اليها من جهة الام او غيرها من الجهات تغلباً او تقرباً او تقوياً .

والفرع او « الجبّ » هو الجد لقسم من الاسرة الكبرى ، وقد اصبح كالاصل لما بعده من الفروع الصغيرة التي تتألف من البيوت والافراد . فيكون الاصل كأصل الشجرة ، والفروع الكبيرة او « الجباب » هي كالجذوع النابتة من اصل الشجرة ، والفروع الصغيرة هي كالاغصان وما فيها من الاوراق والاثار . وقد شبهوا الاسرة ايضاً بالجسم وفيه : الرأس والبطون والافخاذ الى غير ذلك مما شرحه علماء الانساب .

الشجرات والسلاسل : وقد اعتاد الناس ان ينظموا انساب اسرهم بهيئة « شجرة » يذكرون فيها تصويراً اسماء اصولهم وفروعهم او بطون اسرهم او افخاذها لما فيها من التشابه بينها وبين الشجرة او الجسم . ويسمونها ايضاً « سلسلة » لانها تتألف من حلقات يتصل بعضها ببعض كالسلسلة .

وتعرف عندهم بالعريشة فيقولون « عريشة العائلة » لانها تشبه عريشة كرم العنب . ولقد حرص كثير من اللبنانيين على هذه الشجرات او السلاسل او العرايش الى اليوم ، ودوّنها بعضهم فكانت خير ما ابقاه الاباء للابناء . وعني كثيرون بطبع هذه الشجرات التي رُسمت على صور واشكال مختلفة لتحفظ في بيوت الاسر ، وتبقى اثرًا جميلًا لها ولذراريها في الوطن وفي المهجر

وكنا نتمنى ان تكون هذه الشجرات عند كل الاسر ، وان تكون مبنية على الحقائق دفعًا لما دخل على تواريخ الاسر من المغالط والاوهام . وتفنن العرب بوضع سلاسل انساب قبائلهم على اشكال مختلفة وصور رائعة بديعة ، ونشروا كثيرًا منها بالطبع . وقد اجتمع لدينا طائفة من شجرات لبعض الاسر اللبنانية منها مطبوع ومنها مخطوط . ومنها ما يظهر بصورة جميلة ولكنها تحتاج الى تحقيق وتسديد ، لان العبرة لا للصور البديعة والاشكال الرائعة بل للحقائق الراهنة والنصوص الاكيدة . وقد اورد صاحب كتاب « اخبار الاعيان » الشيخ طنوس الشدياق الحدثي اللبناني انساب الاسر التي ذكرها من اعيان لبنان بقوله : فلان ولد له فلان الى اخره بصورة موجزة بسيطة .

الانتساب والتكني : وكان اللبناني يفاخر بنسبه واسرته ، ويعتز باصله وبلدته فيقول : انا فلان ابن فلان الفلاني من بلدة كذا ومن عائلة كذا . وربما تكنى احدهم بالامير او الشيخ الذي هو من رجاله وخاصته . وكانوا يقولون : هذا البيت من عهدة او سمية الامير او الشيخ الفلاني ، فضلًا عن انتسابهم قديمًا الى الحزب القيسي او الحزب اليمني ، ثم الجنبلاطي او اليزبكي ، ثم الاحمدي او العمّاني ، ثم الكرمي او الداوودي .

واذا كان الرجل بين اهله في بلدته فلا يُعرف الّا باسم ابيه او جده او فرع اسرته ، ذلك تمييزًا له عمن يدعى باسمه من اسرته نفسها . اما اذا كان خارجًا عن بلدته وسئل من اين انت ومن اية عائلة ؟ اجاب من مكان كذا من العائلة الفلانية مصرحًا باسم اسرته . ولهذا فان تزوح الافراد والاسر من مواطنهم وتفريهم عن بلادهم كثيرًا ما يجعلهم ان يصرحوا باسماء اسرهم

المعروفة في وطنهم والتي لا يحتاجون الى ذكرها والتلقب بها الا في الخارج وفي المهجر قريباً كان او بعيداً . وهذا كان من اهم الاسباب الداعية للانتماء الى الاسر الاصلية التي اشتهر الناس بها .

وهناك اسباب اخرى منها اختلاط القوم بالغربيين والاقتداء بهم في كثير من الازياء والعادات ، فقد قلدوهم بان يذكر لمحدهم اسمه واسم اسرته فقط . وبفضل هذا وغيره صرنا نسمع بذكر اسماء الاسر الاصلية التي كانت مهجورة مجهولة او منسيّة . ومما يجب ذكره ان الانتساب الى الاسرة دون ذكر الاب او الجد او فرع الاسرة ، مع ما فيه من الاختصار والاقتصار على ذكر اسم الاسرة الكبرى ، قد يؤدي احياناً الى الالتباس والغموض بحيث لا تتضح حقيقة الشخص الا بذكر والده وجده الى اخره . ولكل من الامرين فائدة اذ لكل مقام مقال .

الجامعات العائلية : وفي البلاد اليوم نهضة قومية لا بأس بها ، وهي ان الاسر اخذت تؤلف جمعيات او جامعات عائلية غرضها جمع شتات الافراد والفروع في الاسرة وتوحيد كلمتها واسمها بحيث ان تضامنها وتعاونها فيهما القوة والنجاح ، وعني بعض المفكرين بتأليف مشجرات وتواريخ للاسر مما لا تخفى فوائده . على ان بعض هذه الجامعات مع ما توخته من حسن القصد وشرف الغاية لم تؤسس على مبدأ صحيح بل على وحدة الاسم المشترك بين اسر تتفق اسماً وتختلف اصلاً ونسباً . وذلك لانها لا تتحدر من جد واحد ، فلا قرابة تجمع بينها ولا رابطة نسب . وقد يكون بعضها مشكوكاً كثيراً في صحة انتمائه الى الجد الجامع للفروع ، او بالحري مغلوط لانه مبني على الوهم او لغرض سياسي . واذن لا فائدة من هذه الجامعات اذا كانت على هذه الصورة سوى تعدّد الاحزاب والفرق مما نحن في غنى عنه . والاولى ان تؤلف الجامعات العائلية المؤسسة على وحدة الاصل والاسم ، فتهتم بتحقيق تاريخها وانسابها ، وتعنى بمصالح اسرتها المادية والادبية . ويكفي ان يحتفظ كل فرع منها بلقبه الخاص بشرط ان يعرف علاقته واتصاله بالاصل الجامع وسائر فروع الاسرة .

التحريف والتبديل : وهناك امور يجب التنبه لها وهي تحريف اسماء الاسر وتبديلها وتغييرها لاسباب غير صحيحة وبعيدة عن الحقيقة والصواب . فقد جرت العادة ان تضاف الى اسم الاسرة لفظة « أل » كأن يقال الحدّاد والصائغ والخيّاط والحمصي والحموي والاهدني والحصروني . فان « ال » لازمة لها لانها وُضعت في اصلها وَضع الصفات لتحقيق معانيها فيمن أُطلقت عليه اولاً ، ثم غلبت على اصحابها غَلَبَة الاعلام ولزمت اسرهم من بعدهم ، بخلاف ما وُضع منهـا وضع العَلَم كفاضل (انظر الضياء للشيخ ابراهيم اليازجي ٨ : ٤٩٨)

الا ان بعضهم يحذفون « ال » من اسماء الاسر ويقولون : حدّاد وخيّاط وحمصي واهدني الخ ، ويغيرون هذه الاسماء المشهورة بالحذف على خلاف الاصول. وهناك مثلا اسم بيت البشعلاني ، وهي اسرة مؤلف هذا الكتاب ، فانهم حذفوا منه اولاً لفظة « ال » فصار بشعلاني. وعمد غيرهم الى الابدال فقالوا : المشعلاني . ثم اتى الآخرون بالتحريف ابدالاً وحذفاً وقالوا مشعلاني . وهكذا اصبحت هذه الاسرة بفضل هذا التحريف اربع اسر : البشعلاني وبشعلاني والمشعلاني ومشعلاني ؛ مع انها اسرة واحدة مشهورة في التاريخ من قديم الزمان تنسب الى قرية بشعله في اعالي بلاد البترون . وقد ذكر البطريرك اسطفان الدويهي المشهور في كتابه « تاريخ الازمنة » اخبار جدها ابي رزق البشعلاني واخيه ابي صعب وسلالتهما يوم اقامتهم في مدينة طرابلس منذ ثلاثة قرون ، ثم رحلوا الى كسروان ومنها الى صليما المتن ، فضلا عما كتبه عنهم كثيرون من الشرقيين والافرنج . ولم يكتفر المحرّفون بما فعلوه بل زادوه اوهاماً تبريراً لعملهم بان نسبوا هذه الاسرة الى اماكن لا وجود لها .

ومنهم من كان ينتسب الى جد معين فنسبه بعض مدّعي التاريخ الى اسرة من الاسر الكبرى بحجة ان جده هو فرع من فروعها والعكس بالعكس، وذلك دون دليل سوى وحدة الاسم او بناء على رواية وهمية . ومنهم من يحذف من كنية اسرته لفظة « ابو » فيقول : بيت رزق عن بيت ابي رزق مثلا ، والحال ان هذه الكنية لا يصح اطلاقها الا على سلالة رزق فقط ، لانه اذا

كان لابي رزق الجد الجامع اولاد غير رزق فلا يدخل منهم بهذا الاسم الا رزق بخلاف كلمة ابي رزق فانها تشمل سلالة رزق وسلائل اخوته – وهكذا يحذف كثيرون لفظة «ابو» من اسماء اسرهم العربقة التي كان اكثرها يبدأ بهذه اللفظة .

المآخذ والمصادر : واغرب من هذا كيفية اخذ الاخبار عن الاسر عند بعضهم ، وهي ان يلتقطها دون تروٍ ولا تحقيق ، او يتلقاها عن غير ثقة ، او يغير ويبدل فيها على حسب اهوائه او لغاية في النفس قصد المفاخرة بجودة الاصل وطيب العنصر ، فيعزو الى اسرته ما هو اغيرها من الصفات والاخبار. ومنهم من اذا سألته عن تاريخ اسرته وعما كان يقوله ابوه وجده واهله بشأن اصلها فيجيب : ان البطرك يوسف مسعد كان يقول عنا كذا وكذا ، او ان الاستاذ عيسى المعلوف وجد تاريخ اسرتنا كذا وكذا . ان البطريرك مسعد كان يروي كثيرًا من اخبار الاسر ولكننا لا ندري اذا كان ما قيل عن لسانه قد رواه ثقة . اما الاستاذ معلوف فربما له معرفة بتاريخ الاسر اكثر من غيره لتجرده لهذا الامر وتنقيبه عن تاريخ الاسر ، ولكن اعتماده في الدرجة الاولى كان على الاخبار المروية بالخصوص عن العارفين من ابناء الاسر ، لان صاحب البيت ادرى بالذي فيه . فالاولى عند تضارب الاراء واختلاف الروايات الرجوع الى روايات الثقات في الاسر بعد معارضتها مع بعضها وتمحيصها ونقدها نقدًا صحيحاً مجردًا عن كل غاية وغرض .

الاسماء في الاسر : ومن العادات الجارية في الاسر العربقة المحافظة على الاسماء المألوفة وهي ان يسمي الاب بكره او غيره من اولاده باسم ابيه . فيحنا بن منصور يسمي ابنه باسم ابيه منصور ، ومنصور هذا يسمي ولده باسم ابيه حنا . ومثله ابو ناصيف الياس وابو انطون فارس بحيث انه اذا ذكر اسم انطون تبادر الى الذهن انه ابن فارس وابو فارس جرياً على العادة المألوفة. وهكذا تبقى الاسماء التقليدية محفوظة في الاسرة على هذا الشكل اجيالًا وقرونًا . وقد ورد في الانجيل ان اليصابات لما ارادت ان تسمي ولدها يوحنا

قالوا لها « ليس احد في قبيلتك يدعى بهذا الاسم » مما يدل على هذا التقليد المتبع في الاسر قديماً وحديثاً .

وهناك اسماء خاصة متغلبة في بعض الاسر او محصورة في بعض القرى فلما توجد في غيرها ، بحيث يستدل الباحث ان المسمى بها من الاسرة الفلانية او القرية الفلانية ، واذا وجدت في غيرها كانت غالباً مكتسبة . اما الاسماء المنتشرة بين اسر مارونية لبنانية كشيبان ونبهان وشهدان ، فانها كثيراً ما تدل على وحدة الاسر اصلاً ومحتداً . وقد يتخذها بعضهم شاهداً على ان هذه الاسر عربية الاصل ، الا ان تعدد هذه الاسماء في تلك الاسرة لا يكون وحده دليلا على صحة هذا المذهب الافتراضي ، لان هذه التسمية اتصلت الى الاسر المذكورة على الارجح من اختلاطها بالاسر والاوساط العربية قديماً او حديثاً ، كما ان تعدد الاسماء الافرنجية اليوم بين الاسر اللبنانية لا يكون دليلاً على انها من اصل افرنجي بل ان السبب في هذا هو الاختلاط والتقليد الذي هو عريق في الآدميين ولا سيما فينا .

ومعلوم ان هناك اسماء مشتركة بين الناس على اختلاف اديانهم كيوسف وابراهيم ومنصور ، كما ان هناك اسماء خاصة بكل فرقة من الفرق الدينية مثل حاييم وراوبين لليهود وبطرس وطانيوس وحنا للمسيحيين ومحمد وعلي للمسلمين ، فلكل طائفة لها اسماء خاصة عدا الاسماء العامة . الا انه مع هذا قد يتسمى بعض هذه الفرق بما هو خاص بغيره من الاسماء ، فان متنصرة العرب ومستعربي السريان كانوا يتكنون بكنى المسلمين في عهد حضارتهم مع احتفاظهم باسمائهم الخاصة كحنين وبختيشوع واسحاق فيطلق عليهم ابو المعالي وابو البركات (انظر الخزانة الشرقية لحبيب الزيات في المشرق) وكان الامراء اللمعيون يكنون كواخيهم المشايخ بني حسان النصارى في صليما « ابو علي بشير » « وابو حسين يوسف » وكان الامراء الشهابيون يكنون اسرة الشيخ فارس الشدياق في حدث بيروت « بيت ابو حسين يوسف » ولا يزال بين اسماء مشايخ بني حبيش والخازن والدحداح اسماء اسلامية عربية مثل محمود وطالب ،

اتخذها بعضهم دليلًا على ان هذه الاسر عربية اصلًا اسلامية دينًا تمًا يخالف الواقع . اما بقاء اسماء محمدية بين الشهابيين واللمعيين الذين تنصروا فهو لان الشهابيين كانوا مسلمين واللمعيين كانوا دروزًا .

وقد رأى بعض المتحمسين للوطنية ان تصير مشاركة الطوائف في الاسماء توحيدًا للكلمة وتقريبًا للقلوب فسمى الاستاذ مارون عبود الماروني ولده محمدًا وسمى صديق له مسلم ولده مارون . لكن ذلك لم يزد الحب والتساهل حبًا وتساهلًا ولم ينقص التعصب والبغض تعصبًا وبغضًا . وقد كان العرب المسلمون في عهد الخلفاء العادلين يخالطون النصارى ويؤاخونهم ، لا يمنعهم اختلاف الاسماء . وتفرّق الاديان من الالفة والمسالمة ، فعاش النصارى في الدول الاسلامية آمنين كما يعيش المسلمون اليوم في المستعمرات والمهاجر تحت حكم الدول النصرانية بتمام الراحة والحرية خلافًا لبعض الدول المتعصبة .

على ان اختلاط اللبنانيين بالاجانب حمل كثيرًا منهم على تقليد الغير في عاداتهم وازيائهم ولغتهم ، وتناسى بعضهم تقليدات اسرهم في امور كثيرة . على اننا مع هذا لم نعدم في الوطن والمهجر وجود كثير من ابناء الاسر اللبنانية الاصيلة ممن يصونون العهود ويحافظون على كل عادة شريفة وتقليد كريم من عادات وتقليدات الاباء والجدود ، فانهم مع اقتباسهم الكثير من اسباب الرقي والحضارة يحافظون جهدهم على المستحب من اداتهم وعاداتهم الشرقية ، كما ان نبهاء المغتربين منهم يحرصون على دينهم ولغتهم وتاريخهم وانسابهم ، ويحنون الى وطنهم مشاركين اهليهم واسرهم على البعد والقرب في السراء والضراء .

٢ ــ تاريخ الاسر المارونية

الغموض والاوهام : لا يخفى على العارف البصير ما في تاريخ الاسر اللبنانية من الغموض والالتباس ، وما دخل على اصولها وانسابها من الخرافات والاوهام . فليس هنالك مصادر موثوق بها ، ولا يمكن الركون الى الاخبار

مروية والتقاليد المعمول بها . وليس من تواريخ عامة او خاصة يرجع اليها في هذا الشأن ، ولا اثار خطية تكشف القناع عن حقيقة تاريخ كل اسرة ، ما خلا بعض الاسر الشريفة التي جمع بعض المؤرخين اخبارها من مصادر مختلفة او ورد ذكرها في التواريخ العامة . وما سوى ذلك فمعظمه روايات متضاربة ومخطوطات خاصة لا ينال الباحث غرضه منها ، ان لم يكن له من سعة الاطلاع ووفرة المحفوظ ونافذ الفهم ودقة النقد ما يتمكن به من التمييز بين الصحيح والباطل والتفريق بين الغث والسمين .

ضياع التاريخ : وان ما نُكبت به القبائل الشرقية ، وما اصيب به لبنان وعشائره ، ولا سيما الموارنة ، من النكبات المتوالية ، كان من اكبر الاسباب في ضياع تاريخها ، وتشتت اخبار اسرها . واخر المصائب توالي النكبات على الموارنة بعد رحيل الصليبيين من هذه البلاد (سنة ١٢٩٨ م) وخراب كسروان (١٣٠٧ م) ونزوح النصارى الى الشمال ، ثم رجوع بعضهم الى كسروان في ولاية الامراء الغسانيين ، وتنقلهم تدريجاً الى المتن والشوف والجنوب على عهد الامراء المعنيين . فهذه الرحلات والتنقلات المتعددة اضعفت تلك العصبية القديمة ، وفككت روابط الاسر وفرقت حلقاتها ، فضاع كثير من الاصول والانساب .

الالقاب والكنى : وكان من جرّاء ذلك ان تبلبلت الالقاب والكنى في الاسر ، فلقب بعضهم باسم القرية التي نزحوا منها ، كبيت الاهدني والحصروني والبشعلاني والحدثي والحدثوني والحدشيتي والطرابلسي والكفوري واده . وسمي غيرهم باسم وظيفتهم ومهنتهم كبيت الحداد والخياط والفرّان والعشي والشدياق والخوري والقاضي . ولقب بعضهم بما لقب به جدهم لحادث او واقعة او صفة اطلقت عليه كبيت باز وغانم وديب والاسمر والاصفر والشمالي . واطلق على الخرين اسم جدهم النازل البلد مثل بيت رزق وباخوس واسطفان وعون . وعلى الجملة فان هذه الالقاب الحديثة كانت ايضاً سبباً لضياع كثير من الانساب والاصول في لبنان . ولم يبقَ سوى ما توارثه القوم

وتناقلوه عن جدودهم ، وما تناولوه عن بعض النَقَلة من الاحاديث ، مما نكاد نشك في صحته لتشابه الروايات ومشاركة الالقاب في اسر عديدة ، بحيث اختلط الصحيح بالباطل والحقيقة بالوهم مما يستلزم نقداً وتمحيصاً لهذه الروايات المتناقضة .

التباس الاسماء : وهنالك تشابه الاسماء واتفاق الالقاب ، فالاسماء : رزق وكرم والخوري وامثالها تطلق على اسر كثيرة متباعدة النسب ، لا قرابة تجمع بينها ولا رابطة سوى وحدة الاسم . وهناك قرابة الخؤولة وقرابة الدخيل على الاسرة والمنتمي اليها بحيث يضيع النسب بهذه القرابة ويفقد اسم الاسرة الحقيقية ، اذ يتغلب على الشخص اسم اسرة والدته او خاله الذي ربّاه . وان يتخذ الدخيل والنزيل على الاسرة لقبها تقرباً اليها وتقوياً بها فيطمس ذكر اسرته مع الايام . وقد تلقب الاسرة باسم الام او الزوجة كبيت خضرا وبيت زهرة ، فضلا عن الالقاب التي اطلقت على بعض الاسر سواء كانت بحسب واقع الحال او تقليداً مثل بيت القاضي والحكيم . فكل هذا يقتضي الاستقراء وطول البحث والتنقيب .

الرواية والتقاليد : ولعل الناقد يأخذ علينا اننا لم نتوصل في تاريخ اسرنا الى مدى بعيد ، وان اخبار معظم هذه الاسر وتواريخها مرجعها التقاليد والروايات التي تقرب من الاساطير . ولكن لنا اسوة بكثير من الامم التي قلما يخلو تاريخها القديم من الخرافات والاساطير ، بل هناك اسر عديدة لا تاريخ لها من قبل مئة او مئتي سنة . واسر لا تعرف نسبها قبل ثلاثماية سنة ، وقليلون جداً الذين يعدون حلقات سلسلة اسرتهم الى اربعمائة سنة ، وهذا نادر لا يوجد الا عند الاسر العريقة الحريصة على تاريخها وانسابها . اذن لا لوم علينا اذا قلنا ان ليس لدينا من اخبار الاسر المارونية من قبل القرن الخامس عشر او السادس عشر غير التقاليد المروية التي نذكرها ونحن في ريب من امرها . لان الباحث المحقق اذا بلغ هذا الحد من التاريخ فقد المراجع الراهنة والمصادر الاكيدة في تحقيق النسب ، وانقطعت حلقات السلسلة التي

توبط الحلقة بجدود الحاضر الذين لا نعرف من تاريخهم سوى خبر لا يمكن الاطمئنان الى صحته .

ثقات الرواة : على ان فريقاً من جدودنا كثيراً ما كانوا يتحدثون عن ماضي احوالهم وحوادثهم المشهورة بصورة اكيدة جازمة ، لكنهم لم يدونوها فضاع منها الشيء الكثير . وعرفنا جماعة من الشيوخ المعمرة ، وفيهم فريق من نوابغ عصرهم ومن حفظة الاخبار الثقات يسردون الوقائع والحوادث واحوال الاسر واصولها وفروعها ومشاهيرها بدقة وضبط ، وهذه الروايات الصحيحة هي التي نعتمد ونحرص عليها ونستعين بها في تدوين اخبار الاسر وانسابها واحوالها .

عهد التدوين : هذا وقد كان من حسن الحظ ان بعض المفكرين في ذلك العصر كانوا يدونون الحوادث والاخبار بصورة موجزة وعبارة ساذجة على هوامش الكتب الدينية وغيرها لقلة خبرتهم بقواعد التاريخ . وقد وُجدت هنالك شذرات منثورة واخبار متفرقة وتعاليق وحواشي مدونة في اوائل هذه المخطوطات واواخرها لا تخلو من فائدة تاريخية مما استفاد به المؤرخون في مباحثهم وتآليفهم . ولم نعدم وجود مفكرين من علماء الموارنة وقد بحثوا ونقبوا عن تاريخ امتهم ، لكنهم انصرفوا الى تحقيق اصلها وجمع اخبارها العامة . واعظمهم البطريرك اسطفان الدويهي ابو التاريخ الماروني بل اللبناني فقد كان همّهُ تحقيق اصل طائفته وصحة معتقدها ونشر مفاخرها والدفاع عن حوزتها . وهكذا فعل علماء الموارنة وايتهم ، اذ نسجوا على منواله ولم يتهيأ لهم وضع تاريخ يضم اصل واخبار كل اسرة من اسرهم . والسبب هو ما ذكرنا من تشتت الشمل وتعدد المظالم والتنقل والهجرات المتتابعة بسبب الفتن والاضطهاد والجور . زد على ذلك الفقر والبلاء والضيق مما حلَّ بهذه الامة فشغلها عن وضع تاريخها ومعرفة اصلها وفصلها ، وقد اصبح همها الوحيد الاحتفاظ بدينها واستقلالها الداخلي في هذا الجبل الضيق . والمرء لا يبحث عن تاريخه الا اذا خلا من الهم وزالت عنه الشدائد .

هذا وهنالك اخبار ومعلومات تاريخية عن الاسر المارونية في عصورها القديمة ، لكنها ضاعت كما ضاع كثير من تاريخ هذه الامة في اول نشأتها ، منها اثار اثنين من علمائنا القدماء المشهورين وهما : تيوفيل الرهاوي المتوفى ٧٨٥ م وقيس الماروني الذي عاش بين القرنين التاسع والعاشر . وقد ذكرهما ابن العبري في تاريخه السرياني (ص١٢٦) الذي نقله الى العربية العالم الخورسقف اسحاق ارملة ، وفي كتابه تاريخ الدول (٢٢) والمسعودي في تاريخه (١٥٤) كما فقدت اخبار كثير من البطاركة المارونيين الاولين ، وضاعت اثارهم لطول العهد وتقلبات الايام . على ان فيما كتبه الدويهي والسمعانة وغيرهم من علمائنا عما عرفوه او نقلوه من اخبار الطائفة المارونية واثارها واحوالها الاجتماعية والدينية ، نبذات وشذرات هي على قلتها وايجازها لاتخلو من فائدة لها قيمتها في تاريخ الافراد والجماعات .

التواريخ الخاصة : من البديهي ان اول ما يفكر فيه الانسان نفسه ثم اسرته ثم امته ، فيريد ان يعرف قبل كل شيء اصله ومنشأ اسرته وتاريخ طائفته وامته ووطنه ، ويمتد نظره الى ابعد من ذلك الوقوف على انباء البعيد والغريب عنه . وقد عثر الباحثون على نبذات وشذرات منثورة تكاد كلها تطس لطول العهد ، تحتوي على اخبار بيت او اسرة وضعها احد افرادها او غيره ، فهذه وان تكن تواريخ خاصة ، فلا بد منها لتأليف تاريخ الاسر العام الذي يتألف من التواريخ الخاصة ، ويكون مجموعة تاريخية للاسر . حتى اذا كانت مرتبة على حروف المعجم دعيت قاموساً او موسوعة او دائرة معارف تاريخية للاسر ، وهي التي عليها يدور البحث الان والسعي لتحقيقها .

ومن التواريخ الخاصة « تاريخ العينطوريني » الذي لا يزال مخطوطاً وقد انشأه الشيخ انطونيوس ابي خطار العينطوريني (١٨١٧ م) وهو اول من نشر تاريخاً عن اصل الاسر الشريفة بلبنان ، فضلاً عما فيه من اخبار الحوادث اللبنانية . وتاريخ الاعيان للشيخ طنوس الشدياق الحدثي وهو مطبوع حوالي ١٨٥٩م وتاريخ بيت الخازن المخطوط انشأه الشيخ شيبان الخازن في اوائل

القرن الماضي وفيه الغث والسمين . وقد وضع البطريرك بولس مسعد تاريخاً موجزاً لبيت الخازن نشر بالطبع . ومن التواريخ الخاصة كتاب « دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف » طبعه مؤلفه المؤرخ البحاثة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف سنة ١٩٠٨ وفيه معلومات موجزة عن كثير من الاسر ، وله كتاب « في تاريخ زحلة » وكتاب « في تاريخ الاسرة اليازجية » وغيرهامن الكتب التاريخية الخاصة والعامة . ومن التواريخ الخاصة المطبوعة « المقاطعة الكسروانية » للخوري منصور الحتوني . وتاريخ « البقعة الشبابية » للخوري خليل غبريل ، « وتقويم بكفيا الكبرى » للشيخ أدمون بليبل . « وتاريخ دوما » للخوري قسطنطين الباشا . « وتاريخ بسكنتا » للخورسقف بطرس حبيقه . وتاريخ دلبتا للخوري بطرس روفايل . والكاتب هذه السطور كتاب مطوّل في « تاريخ بشمله وصليما » نشره بالطبع منذ بضع سنوات الى غير ذلك من التواريخ الخاصة باسرة او بلدة او مقاطعة . هذا فضلاً عما نشرته بعض المجلات والجرائد من تواريخ وابحاث عن الاسر اللبنانية على اختلافها ، والقليل الذي ورد في كتاب « دائرة المعارف » للعلامة بطرس البستاني .

التواريخ العامة : اما تواريخ الاسر اللبنانية العامة التي هي موضوع كلامنا فلا نعلم ان قد ظهر منها كتاب حتى الان . ويظهر ان بعض المفكرين حاولوا سد هذه الثلمة ، ولعل الدويهي حاول ذلك فلم يتوفق ، كما توفق في محاولته سد الحاجة الى تاريخ عن لبنان والموارنة . وقد انتشر كتابه هذا مخطوطاً ، الى ان نشرته المطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٩٠ وتولى نشره يومئذ المعلم رشيد الخوري الشرتوني . واليوم جدد نشره على الطريقة العلمية حضرة الاب توتل احد فضلاء الآباء اليسوعيين وعلمائهم في مجلة « المشرق » فكان عمله اجل خدمة للتاريخ اللبناني . على ان الذين حاولوا بعد ذلك وضع تاريخ عام للاسر لم يوفقوا لانجازه حتى اليوم . والذي علمناه بهذا الشأن هو ما قد شاع وذاع ان افراداً من اللبنانيين كان لديهم مجموعات مخطوطة موضوعة او منقولة تحتوي تواريخ كثيرة او قليلة عن اصل الاسر ولا سيما المارونية .

وهذه التواريخ او المجموعات كما قيل هي ستة : ١ً : تاريخ القس (المطران) جرجس مارون الاهدني ، ٢ً : تاريخ القس يوسف اسكندر القرطباوي ، ٣ً : تاريخ البطريرك ميخائيل فاضل ، ٤ً : تاريخ البطريرك بولس مسعد ، ٥ً : تاريخ الخوري الزناتي الحصاراتي ، ٦ً : تاريخ خوري بلّا الندراري . وهذه التواريخ التي شاع ذكرها ونقل عنها الكثيرون تاريخ اسرهم ، لا تزال صحة اخبارها والمنقول عنها تحت البحث والريب مما سوف نفصله في باب « مؤرخي الاسر » ان شاء الله تعالى .

(له صلة)